

مقدمة

عاش الأدب العربي في الأندلس نحو ثمانية قرون، وتأثر بتلك البيئة التي عاش فيها ، وأثر في بيئته وفيها جاورها من بيئات. وليست تلك القرون الطويلة بالزمن المهيمن في تاريخ أدب ، وليست الأندلس ببيئتها الطبيعية وظروفها الاجتماعية والسياسية ، بالشئ الذي يمكن إغفاله في درس هذا الأدب ، وأخيراً ليس التأثير الذي كان للأدب الأندلسي فيما جاوره من آداب ، بأقل خطراً من كل ما تقدم .

ومن هنا ، وجبت العناية بدرس هذا الأدب ، وفاء بحق ما يقرب من ثمانية قرون من تاريخ الأدب العربي . ووجبت العناية بدرسه كذلك ، تقديراً لآثار إقليمية لها فاعليتها في حياة هذا الأدب ، ثم وجبت العناية بدرسه أيضاً توضيحاً لنفحات عربية إسلامية حملت إلى بعض الآداب الأوروبية أريجها العطر .

وعلى الرغم من هذا كله ، قد لقي الأدب الأندلسي كثيراً من إهمال الدارسين في عالمنا العربي ، مع وفرة وجوده ما كتبوا عن أدب المشرق ، منذ جاهليته إلى عصره الحديث ، ومن مهده في جزيرة العرب إلى أقاليمه المختلفة ، في العراق والشام ومصر . وقد يكون إعراض بعض هؤلاء عن درس الأدب الأندلسي ، بحجة أنه لم يأت بجديد ، وأنه ليس إلا صورة للأدب المشرق أو محاكاة له . ولكننا إذا سلمنا جدلاً بهذا الحكم - مع أنه غير صحيح - فنحن نساءل : هل يشترط لدراسة أدب إقليم أو عصر ، أن يكون مغايراً تماماً لأدب أي إقليم أو عصر آخر ؟ أو ليس على أي حال أدباً يستحق الدرس بصرف النظر عن مغاييرته أو مماثلته لغيره ؟ ثم أليس الدرس وحده هو الذي سيوضح لنا لماذا

جاء هذا الأدب دون جديد ، أو لماذا جاء على صورة غيره أو محاكياً له ، إن صح أن ذلك له حظ من الصحة ؟

وليس معنى ذلك أن أقلام الباحثين في عالمنا العربي قد ولت ظهورها تماماً لهذا الميدان ؛ فالحق أن أقلاماً قد خاضته في جرأة ، فأبلى بعضها وأخفق بعضها . وعلى أية حال فأغلب الدراسات التي أرخت لأدب الأندلس . قد جاءت دراسات إما موجزة وإما ناقصة وإما أقرب إلى موضوعات الإنشاء .

والسبب في الإيجاز رغبة بعض الباحثين ، في التأريخ للأدب الأندلسي كله في كتاب واحد . ومن هنا تغفل حقائق كثيرة . وتتوارى أمور كانت بحاجة إلى الظهور .

أما السبب في النقص ، فاعتقاد بعض الدارسين خطأ أن الأدب الأندلسي ليس إلا أدباً عباسياً يجب أن يدرس في عصر بني العباس ، ومن ثم يكتفى بالأمور العامة على السطح . حيث يتحدث عن الطبيعة ومجالس اللهو أو شئ يقرب من ذلك ، ثم يترجم لنفر من الشعراء ، وربما يضاف إليهم نفر من النثرين ، وهكذا يظن أن ذلك تأريخ للأدب الأندلسي .

أما أسوأ ما يكتب عن هذا الأدب فهو الصنف الأخير من هذه الأصناف ، وهو صنف موضوعات الإنشاء . وقد لجأ إليه بعض من تصدوا للتأريخ للأدب الأندلسي ، متوهمين أنه متى ذكر النسيم والورد والجدول والنبع ، ومتى حشرت ألفاظ الرقة والعذوبة والترقيق والسلاسة ؛ كان هذا حديثاً عن أدب الأندلس !!

وربما كان المستشرقون - إلى اليوم - أقرب إلى المنهج وأكثر اعتماداً على الحقائق ، فيما كتبوه عن الأدب الأندلسي . ومع ذلك فتأريخهم له - برغم منهجيته وحقائقه - لا يزال يتسم بالإجمال والاقتضاب والسرعة . ولهذا أمكن القول بأنه إلى اليوم ، لم يظهر

تاريخ منهجي مفصل للأدب الأندلسي .

ولقد شاء الله أن أنخصص في هذا الفرع من فروع الأدب العربي ، وأن تكون دراساتنا العليا وفقاً عليه ، وأن يكون مقر هذه الدراسات هو «إسبانيا» موطن هذا الأدب حيث نشأ وتطور ، وحيث تنال دراسته عناية كبيرة . كذلك شاء الله أن يرتبط عملي الجامعي بهذا الفرع من فروع المعرفة ؛ إذ أسند إلى تدريس الأدب الأندلسي في كلية دار العلوم ، منذ سنة ١٩٥٥ .

ولهذا كله رأيت أن أضطلع بدراسة منهجية مفصلة للأدب الأندلسي ، أتناوله فيها منذ دخول المسلمين إلى إسبانيا ، وأتبعه خلال عصورهم المختلفة فيها ، وأحدد ما قد يكون له من اتجاهات فنية ، وأبحث عما قد يغذيه من روافد مشرقية ، وأكشف عما قد يخالطه من منابع مغربية . كل ذلك مع الترجمة لمشاهيره والتعريف بروائعه ، ثم رسم خصائصه وتحديد معالمه ، وبيان صلته بالآداب الأوربية التي جاورته أو اتصلت به .

وقد عازمت على أن تم هذه الدراسة مسترشدة - ما أمكن - بالعصور المميزة في تاريخ الأندلس . حيث أخرج كتاباً عن «الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة» ثم آخر عن «الأدب الأندلسي في عصر الطوائف» ثم ثالثاً عن «الأدب الأندلسي في عهدي المرابطين والموحدين» ثم رابعاً عن «الأدب الأندلسي في العهد الغرناطي» ثم خامساً عن «خصائص الأدب الأندلسي وتأثيره في الآداب الأخرى» .

ويلاحظ أني سأقرب في تقسيمي للعصور الأدبية الأندلسية من التقسيم السياسي التاريخي لهذا الإقليم . ولست أجهل أن ذلك التقسيم غير دقيق ، ولست أجهل أيضاً أن الأدب لا يتغير بمجرد قيام دولة وسقوط أخرى ، ولكنني قربت من هذا التقسيم لتحديد معالم الطريق أولاً، ولارتباط الأدب العربي بالدول والسياسات ثانياً . على أني - كما سيرى - لن ألترم بالتقسيم الذي سار عليه المؤرخون ، وسوف أختار أنسب التقسيمات

وأقربها إلى التأثير في الأدب . لهذا سأتناول في هذا الكتاب الأول تاريخ الأندلس الأدبي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، مع كون هذه الحقبة من تاريخ الأندلس تمثل عصرين مختلفين : العصر الأول هو ما يسمى بعصر الولاة ، وهو الذي يبدأ بالفتح الإسلامي ، وينتهي بإقامة عبد الرحمن الداخل لدولة بني أمية في الأندلس . أما العصر الثاني فهو ما يسمى بعصر بني أمية ، وهو الذي يبدأ بقيام عبد الرحمن الداخل بالأمر ، وينتهي بسقوط الخلافة الأموية في الأندلس ، وقيام الحكم الجمهوري في قرطبة على يد ابن جمهور .

وإنما جمعت هذين العصرين في دراسة ، لأن الأول منهما ليس إلا كتملة للثاني . وإنما وقفت عند سقوط الخلافة ، لأن سقوطها يقيم دولة جديدة لها خصائصها السياسية والاجتماعية والثقافية ، التي من شأنها أن تنتج أدباً ربما غير الأدب السابق بعض المغايرة . ولعدم التزامي للتقسيم السياسي المعروف ، ولكوني أنظر إلى الدول وسياساتها كمؤثر فقط من المؤثرات الكثيرة التي تصيب الأدب ؛ رأيت أن العصر الأموي طويل ، وقد اختلفت أحوال الأندلس فيه اختلافاً ليس باليسير . وكان هذا الاختلاف يحدث بين فترة وأخرى من فترات هذا العصر الأموي ، فيمس النواحي السياسية والثقافية والاجتماعية جميعاً . من أجل هذا رأيت أن أقسم هذا العصر الأموي إلى فتراته المميزة المختلفة ، حسب الأدوار التي مر بها إبان هذا التاريخ الطويل . وعلى هذا قسمته إلى تلك الفترات : فترة تأسيس الإمارة ، وفترة صراع الإمارة ، وفترة الخلافة ، وفترة الحجابة ، وأخيراً فترة الفتنة . وقد جعلت لكل فترة من تلك الفترات فصلاً . فإذا تذكرنا أنه سيسبقها فصل عن فترة الولاة ؛ تبين أن فصول هذا الكتاب الأول ستكون ستة ، كل فصل منها سيتناول تاريخ أدب فترة مميزة .

ولما كان الأدب — كمشاط إنساني في — متأثراً لا محالة بما يحيط به من ظروف

سياسية واجتماعية وثقافية ؛ رأيت أن أصور كل فترة أولاً من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية ما أمكن ، ثم أتبع ذلك بالحديث عن الأدب كنتيجة أو كظاهرة متأثرة بكل ما سبق .

وقبل أن أشرع في تلك الفصول السنة التي تتحدث عن تاريخ أدب الأندلس إلى سقوط الخلافة ، سأشهد بتحليل «اسم الأندلس» ثم بإيراد «لمحة جغرافية» تصور طبيعة هذه البلاد ، ثم أتبع ذلك بعرض تاريخي سريع «لإسبانيا قبل المسلمين» ثم «للمسلمين في إسبانيا» ، ثم أختتم هذا التمهيد بتصوير «المجتمع الأندلسي» من حيث عناصره البشرية ودياناته ولغاته وشخصيته ؛ ليكون ذلك بمثابة المدخل لهذا التاريخ المبسط للأدب الأندلسي ، الذي أرجو أن أضطلع به ، ثم ليقبل القارئ على هذا البحث الأدبي وبين يديه ما يلقى ولو بعض الضوء ، على ما قد يكون بين السطور من غموض .

وقبل أن أختم هذه المقدمة أتبه الى أن بعض المشتغلين بالدراسات الأندلسية ، يرى عدم جلوى التاريخ العام للأدب الأندلسي في الوقت الحاضر ؛ وذلك لقلة النصوص ، وخاصة ما يتصل منها بالفترات الأولى لتاريخ المسلمين في الأندلس . وهم يرون الاكتفاء بالأبحاث الجزئية التي تتناول موضوعاً خاصاً ، أو ظاهرة معينة ، أو أديباً بارزاً أو كاتباً كبيراً ، ونحو ذلك . والحق أن النصوص التي يعتمد عليها دارس تاريخ أدب الأندلس قليلة نسبياً ، وعلى الأخص تلك التي تتصل بالفترات الأولى من تاريخ الأندلس ؛ وذلك لكثرة ما ضاع من تراث المسلمين في تلك البلاد ، بل لكثرة ما أنت عليه أيدي الإتلاف والإبادة من المسيحيين والمسلمين على السواء . لكن كل ذلك - في رأيي - لا يصح أن يكون حائلاً دون عمل تاريخ منهجي للأدب الأندلسي ؛ فقلة النصوص وعدم وفرة المواد ، لا يصح أن توقف العلماء عن البحث في أدهم بحثاً تاريخياً عاماً ، يعتمد فيه على الموجود من النصوص ، ولا يعطى الحكم الأخير في مسألة من المسائل

التي نقل أسانيدھا أو لا تتوافر أدلتھا . إننا لو تركنا التأريخ للأدب الأندلسي حتى
تكتشف كل النصوص المخطوطة والمدفونة ، وحتى يعثر على الضائع منها ويجمع المتفرق ،
فلن تؤرخ لهذا الأدب أبداً ؛ لأن شيئاً من تلك النصوص سيظل دفيناً أو ضائعاً أو مفوقاً
حتماً .

ولو انتظر من قد أرخوا لأدب المشرق حتى تظهر كل نصوصه لما كتبوا شيئاً عن
تاريخ الأدب العربي في الجاهلية أو الإسلام . إن الواجب أن ندرس ما بين أيدينا
وتؤرخ على أساسه ، على أن نعتبر ذلك خطوة يجب أن تليها خطوات ، ويجب أن نستفيد
في كل خطوة من كل مخطوط ينشر ، ومن كل نص يعرف-، ومن كل بحث خاص
يقدم ، وسبيلنا إلى ذلك أن نبحث عن النصوص دائماً ، نحققها وننشرها ثم نعتمد عليها
فيما نكتب من تاريخ أدب . وهكذا يأتي كل بحث في هذا التاريخ الأدبي أوفى وأكمل
وأشمل من سابقه ، بل تأتي كل طبعة من طبعات التاريخ الواحد أكثر حقائق ، وأصح
أدلة ، وأصدق أحكاماً .

وعلى هذا مضيت في هذا العمل برغم ما يتطلبه من جهد مضمّن ، وتنقيب متصل
وبحث صابر .

وقد سألت الله : أن يجعل هذا العمل خالصاً له ، وأن يعين عليه ، وأن ينفع به .

المؤلف

القاهرة ١ ربيع الأول سنة ١٣٧٨
١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٨